قراءة في كتاب

5×5×5 = إبداع
بحث في أطفال يستقصون العالم

أمين دراوشة

العنوان	5×5×5 = إبداع: بحث في أطفال يستقصون العالم
تحرير	سوزي بانكروفت، ماري فوسيت، بيني هاي
المترجم	عيسى بشارة
الناشر	مؤسسة عبد المحسن القطّان
سنة النشر	الطبعة الأولى، 2014
عدد الصفحات	224 من القطع المتوسط

مقدمة

إن «التعليم الصحيح يزهر في مرحلة ما عندما يقع الفرح في علاقة حب مع المسؤولية، فإذا أحببت شيئاً، ترغب في الاعتناء به». (فيليب بلمان، ص 15)

يعتبر الإبداع مهارة حياة أساسية، لكن ماذا يعني ذلك؟ يحاول الكتاب الإجابة عن الكثير من الأسئلة حول الإبداع والتعلم، ومن هذه الأسئلة: ما هي الطرق الأكثر تأثيراً لدعم التطور الإبداعي؟ كيف تستطيع الفنانات جعل التفكير الإبداعي ممكناً لدى البالغين والصغار؟ فالأطفال يولدون وهم مزودون بقدرات إبداعية مذهلة، تتضمن حاجة قوية للاستكشاف، والافتراض، وخلق صلات وربط أفكار. وما يقوم به **5×5×5= إبداع** هو اكتشاف كيف يمكن دعم هذا الإبداع ومساندته في حياة الأطفال والبالغين في أوضاع تعليمية وفي بيوتهم.

الكتاب ثري جداً بالمعلومات، ويقع في ثمانية فصول، تتضمن الإطار الفلسفي المبني على الإبداع كمفهوم ديمقراطي، ويقيّم الأطفال كمتعلمين مبدعين ومؤهلين، والسياق النظري والسياسي للبحث بالاعتماد على كتابات وثيقة الصلة، وبحث مترابط ووثائق حكومية حديثة. وتشمل فصول الكتاب دراسات حالة واضحة، وقصص تعلم متغير، وخطوط استقصاء في البحث (ميول تعلم، لعب خيالي، ذكاء موسيقي، تكنولوجيات رقمية إبداعية ...).

ويركز الكتاب على دور الفنانات في **5×5×5= إبداع**، وتطوير شبكة فنانات. وفصله الأخير فصل تأملي، يتطلع إلى ما هو متوقع، ويعرض مجموعة واسعة من الاعتبارات المستقبلية، وتراث **5×5×5= إبداع**.

وكما يقول فيليب بلمان: فإن «التعليم الصحيح يزهر في مرحلة ما

عندما يقع الفرح في علاقة حب مع المسؤولية، فإذا أحببت شيئاً، ترغب في الاعتناء به». (ص15)

إطار العمل الفلسفي

«إن أفضل ما نحتاج معرفته عن الأطفال، للأطفال، هو ما يتعلمه الأطفال أنفسهم».
(لوريس ملاغوزي، ص17)

يعد 5×5×5= إبداع جمعية مستقلة لبحث إجرائي يقوم على أساس الفنون، ويعمل على جمع الأدلة عن قدرات الأطفال الإبداعية الواسعة في الحياة. ويشمل خمسة مواقع تعليمية، وخمس فنانات، وخمسة مراكز ثقافية، تعمل جميعها على نحو من الشراكة.

ويرتكز بحثها على أساس رؤية جميع الأطفال مؤهلين ومبدعين ويتمتعون بقدرات «صورة طفل قوي ذي قدرة وغني بالموارد منذ لحظة الولادة» ... ويرى البالغون أنفسهم باعتبارهم «يدرّسون أطفالاً يدرسون العالم». ولا ريب إن هذا البحث يتيح إمكانات ثرية للعمل بشكل إبداعي مع الأطفال والمجتمعات الثقافية، ومعالجة قضايا وطنية حول الفنون الإبداعية في المجتمع.

وتقوم فلسفة 5×5×5= إبداع على النظر إلى الأطفال بصفهم بُناة معرفة فطرية خلّاقة، ومستكشفين ومشاركين بفعالية في بناء تعلمهم. ويتركز التعلم على عملية استكشافات الأطفال، وليس على الإنتاج النهائي. واعتبار المربيات والفنانات مزوّدات للقدرات، ومرافقات لتعلم الأطفال ضمن ثقافة الاستماع. والاهتمام بعملية توثيق رحلات تعلم الأطفال واعتبارها وسيلة للتقييم والتأمل في تفكير الأطفال وتعلمهم. والعمل على «تطوير مجتمع خلّاق من المعلمات والفنانات والعاملين المشاركين في المراكز الثقافية وأولياء الأمور والأطفال» (ص 19). ومن أبرز مبادئ 5×5×5= إبداع، إشراك العائلة والمجتمع في التعلم مدى الحياة.

فالأطفال يحتاجون الحرية «ليقدّروا قيمة الموارد غير المحددة لأيديهم واعينهم وآذانهم، وموارد الأشكال (الصور)، والمواد، والأصوات، والألوان، يحتاجون الحرية ليدركوا كيف يستطيع المنطق والتفكير والخيال أن تخلق معاً نسيجاً متواصلاً للأشياء، وتحرّك العالم وتهزّه» (ص19).

السياق الأوسع

«الإبداع هو عملية رؤية احتمالات جديدة».
(وربنسون، ص40)

يُبنى 5×5×5= إبداع على مبادئ للمشاركة والديمقراطية، فهو

الكاتب أمين دراوشة خلال عرضة كتاب 5x5x5= إبداع .. بحث في أطفال يستقصون العالم لمعلمات مسار الطفولة المبكرة- رام الله 2014.

يعمل على تقييم الفردية، ويساند الخيار الشخصي، والسيطرة في التعلم مدى الحياة. فلا شك أن الاستثمار الكبير في الإبداع الفردي والعائلات والمدارس والمؤسسات الثقافية، سيثمر مجتمعات مستدامة، وتشع بالحياة.

ويظهر الفصل الثاني من الكتاب، أهمية الاستماع إلى الأطفال، والتأكيد على أن تعليمهم متوافق مع ميولهم وطرق التفكير والتعبير، ما يؤدي إلى خلق وعي في ثقافة العالم التي يترعرعون فيها.

ويقول دالبيرغ:
«أنتم لا تستطيعون سنّ تشريعات لفهم الناس ... لكن، عوضاً عن ذلك، تستطيعون تبني صورة استجواب وحوار وتأمل وخلق معنى ... إنه عمل في حالة تقدم باستمرار» (ص43).

ويدعو كل من ماري فوسيت وبيني هاي إلى خلق مزيد من الفرص من أجل «تفكير مشترك مستدام»، لدعم تفكير الأطفال وتشجيعهم عن طريق الانخراط في عملية التفكير معهم، فالرغبة هي أن تكون لدى الأطفال أفكار أصلية وغير متوقعة لكي يفكروا بالاحتمالات الهادفة والخيالية والخلّاقة. فنحن نريد من الأطفال أن يُبقوا

عقولهم مفتوحة على اتساعها، وأن يكونوا فضوليين ومحبين للعب ومغامرين في بيئة آمنة.

القوة الكامنة في الأفكار البسيطة

«حافظوا على استعداد لتغيير وجهة نظركم حتى لا يعتريكم الكثير جداً من القناعات».
(لوريس ملاغوزي، ص71)

تقول ملاغوزي: «قف جانباً للحظة، واترك حيزاً للتعلم، راقب بعناية ما يفعله الأطفال، ومن ثمّ، إذا فهمت جيداً، ربما سيكون التعليم مختلفاً عن ذي قبل» (ص45).

إن قبول هذه الفكرة على بساطتها، هي خطوة أولى مهمة لمعرفة أن الإصغاء بشكل حقيقي إلى أفكار الأطفال وآرائهم، هي عملية أكثر تعقيداً مما تخيلنا.

وتقول أندريا سولي: إن الاختلاف بالنسبة لنا كبالغات نبحث في الطفولة، يكمن في المجموعة النسبية للخبرات التي يعتمد عليها الأطفال لفهم عالمهم. وعلى الرغم من أن إطار مرجعيتهم أصغر من إطار مرجعيتنا، فإن ذلك لا يقلل من قدرتهم على الاستقصاء، وحل المشكلات، والتعليل والتفكير بشكل إبداعي.

وعندما نعترف بأن الأطفال مفكرون يمتلكون الكفاءة، سنحتاج إلى القيام بخطوة متخيلة نحو عالمهم لنستكشف معهم المغزى من منطقهم. وهذا الأمر يقودنا إلى تفسير أكثر تعقيداً لخبراتهم التعليمية. فالوقوف في الخلف، والإنصات، ورؤية ما يقدمه الأطفال لنا في أفكارهم وأعمالهم، سوف يتطلب منا التفكير بشيء آخر، وهو التفكير بنتائج مشاركتنا العاطفية والمنطقية الخاصة وبالتفسير والخيارات.

فنانات في 5×5×5= إبداع

يتناول الفصل السادس دور الفنانات اللواتي يعملن في **5×5×5= إبداع**. فهن يناقشن تصوراتهن وعلاقاتهن بشعور قوي للتجربة المشتركة والتعلم والإصغاء، والاستجابة إلى ما يفتن الأطفال، وتطويره ضمن سياقات تعلم تعاونية.

إن استكشاف الإبداع عند الأطفال والبالغين، ومشاركة الفنانات المؤثرة، جزء حيوي من بحث **5×5×5= إبداع**.

وتتناول إملي برينغل أهمية الفنانات ودورهن في سياقات تعليمية، وكيف يستطعن أن يوفرن تجارب تعليمية وتعلمية إيجابية دون الانتقاص من ممارستهن الفنية الخاصة، أو الخاصة بالآخرين.

«فأشكال الانخراط التأملي النقدي، والتعاوني غير المقيدة التي تدخل إليها الفنانات والمشاركون، ليست جوهرية للأفكار الراهنة حول التعليم والتعلم الإبداعيين فحسب، وإنما هي أيضا –وربما الأكثر أهمية– مركزية وملهمة بطبيعة الممارسة الإبداعية نفسها. ولعلها الصلة بين الممارسة الإبداعية والتربية هي التي تعتبر حاسمة» (ص181)، إذ تشترك الفنانات مع المشاركين عبر المناقشة وتبادل الأفكار والخبرات.

والفنانة هنا تعمل كمتعلمة مشاركة بدلاً من خبيرة لا تخطئ تنقل المعرفة إلى المشاركين. فالفنانات يدعمن تعلماً تجريبياً بالتركيز على منح المشاركين الفرصة لكي يجربوا داخل بيئة داعمة. والعلاقة بين الممارسة الفردية الإبداعية للفنانات، وعملهن التعاوني أو التربوي، هي علاقة نقدية.

فعند العمل مع المشاركين، تستعمل الفنانات تعليمهن الخاص، وتدريبهن، وأنشطة إبداعية مستمرة لكي يستملن المشاركين ويلهمنهم ويجعلنهم قادرين على استكشاف أفكارهم الخاصة. إنه شكل مميز وفريد ومتطور من المشاركة.

التغيير فلسفة الحياة

«التغيير عملية مستمرة وليس حدثاً».
(الكتاب، ص202)

تحتاج المؤسسات إلى أن تكون انعكاسية وتتعلم. وتحتاج دائماً إلى مراجعة قيمها والتأكيد عليها من جديد. وحسب البروفيسور بيتر سنج من معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا، فإن المؤسسات الأكثر نشاطاً، وليونة ومرونة ونجاحاً وربحاً، تعرض مجموعة من سلوكيات التعلم، والغرض منها:

- التفكير والاستقصاء.
- تحدي فرضيات وإثارة جدل.
- التعاون والنقاش.
- خلق سلسة نماذج للتغذية الراجعة.
- تطوير لغة مشتركة.
- خلق تفاهم مشترك ونظام تصنيف (ص203).

وهذه السلوكيات لا بد من أن تكون مستمرة وراسخة.

واستطاعت المراكز الثقافية العاملة مع **5×5×5= إبداع** إيجاد طرق جديدة لإشراك الأطفال والبالغين في تعلمهم، حيث تم التحري عن قيمة النهج الاستكشافي غير المقيد، الذي يتعامل مع التعقيدات والتحديات المتضمّنة. إذ جرّب البالغون تغيير الأدوار، بحيث يصبحون بدور متعاون، ومتعلم، وباحث، وممكّن مبدع،

إحدى المعلمات خلال مشاركتها في ورشة نقاش الكتاب برام الله 2014.

ومستمع، ومراقب، وموثّق، وموجّه، وفنان، وأمين مكتبة، وناقد.

ومن خلال استخدام التوثيق لبناء هيئة عمل مقنع، يوفر 5×5×5= إبداع دليلاً يمكن استخدامه لتحدي أطر العمل القائمة. ولعل دعمه لشبكات التعلم المهنية، وعملها مع عائلات ومجتمعات يوفر زخماً لتغيير الممارسة. ويخلق 5×5×5= إبداع حيزاً لممارسة تأمّلية إبداعية، حيث تكون العلاقات مركزية لصنع التغيير.

5×5×5= إبداع: تعلُّمنا.. تراثنا

في الفصل الأخير من الكتاب، وهو فصل تأملي، ويتطلع إلى ما هو متوقع، يعرض مجموعة واسعة من الاعتبارات المستقبلية وتراث 5×5×5= إبداع.

إذ يقول بيني هاي: إن السنوات الماضية بينت أن رحلة تعلمنا كانت مليئة باللحظات المدهشة التي تجاوزت كل التوقعات، حيث كان عمل 5×5×5= إبداع مغامرة بلا حدود، وتحتفظ بقدر كبير من الاحترام للقدرة غير المحدودة لخيال الأطفال وإبداعهم. ويقوم فريق البحث التابع للجمعية بمراجعة الموضوعات والأسئلة المتكررة، والنظريات وإعادة النظر فيها لفهم أعمق للتعلم، وإتاحة فرص جديدة للآخرين.

مجتمعات تعلم ديمقراطية وإبداعية

«... لإدراك الريبة والشك، ولإدراك حدودك كمصدر، كمكان لقاء، كصفة. هذا يعني أنك تقبل بأنك غير مكتمل، وفي حالة تغيّر دائم، وهويتك قيد الحوار». (رينالدي. ص205)

من المبادئ التي عززت عمل 5×5×5= إبداع التعاوني، حرية الوصول، والديمقراطية، والمشاركة. فالرغبة والعقول المنفتحة للبالغين الذين عملوا مع 5×5×5= إبداع، أتاحت فرص القيام بمجازفات هادفة، حيث تتعايش حالة الشك والثقة المتبادلة بشكل مريح.

فمجتمعات التعلم الإبداعية والتأملية طوّرت من أجل المعلمين، والأطفال، وأولياء الأمور، وآخرين مهتمين بالمشاركة، ويقدّر بحث 5×5×5= إبداع عمليات التأمل، والتجريب، والتخطيط المتجاوب، والتوثيق. ويخصص الوقت والحيز لتطوير طريقة محادثة للتعلم معاً.

وأتاح المشروع حيزاً عملياً وتأملياً يرعى النمو المهني والمناظرة: مجتمع بحث ديمقراطي وإبداعي.

وأيضاً تطورت الرغبة في المراقبة، والاستماع، والعمل عن قرب

معلمات مسار الطفولة المبكرة المشاركات في نقاش الكتاب برام الله 2014.

مع أفكار الأطفال في مجتمع من البالغين يفهمون ماذا يعني أن تكون مبدعاً، ويهتمون في كيفية تعلم الأطفال، ويصممون العملية الإبداعية جنباً إلى جنب مع الأطفال.

الطفل في قلب الصيرورة

يستنبط الأطفال أفكاراً مبدعة بنظريات غير متوقّعة تكون هادفة ومتخيّلة، فالمشاهدات الدقيقة للأطفال توفر تبصّراً في اهتماماتهم وانشغالاتهم المسبقة. والبالغون يدعمون عمق تعلم الأطفال من خلال احترام اهتماماتهم الفردية، وأخذ وقت لبناء علاقات مع تفكير الأطفال. ويتم التركيز على تشجيع أفكار الأطفال النامية، وتفكيرهم، ومشاعرهم. «فالأطفال يُعطون فرصاً للاستكشاف، والاستجابة، ووضع تعلمهم في سياق معين، واستخدام طرق مبتكرة وتخيّلية، من شأنها أن تحفّز الخيال وتشجع على التفكير المستقل» (ص206).

وإذا تعامل البالغون مع أفكار الأطفال بجدية، يستطيعون دعم الأطفال وتشجيعهم على الاستكشاف، والتعبير عن أفكارهم في «مئة لغة». فالتوثيق عنصر مهم وضروري لجعل التعلم واضحاً.

أهمية الفنون

فتح هذا المشروع آفاقاً جديدةً فيما يتصل بالحديث متعدد التخصصات، وسلّط الضوء على أهمية التأمل الذاتي. فطرق التعلم متعددة الحواس والوسائط، طوّرت فكرة التعلم كمفهوم متعدد الأبعاد. إذ «تُعلي الفنون من مستوى الظرف الإنساني وتثري التجربة الشخصية، وتمنحنا حسّاً بالهوية، وتوسّع من استجاباتنا الفكرية والعاطفية، وتساعدنا كي نصبح أكثر مرونةً وإبداعاً في مواقفنا» (ص206).

فالفنون تمتلك قوة جبارة لكي تكون تحويلية في حياتنا، وهذا ما يؤكده **5×5×5= إبداع**. فالفنون عنصر لا غنى عنه لحياتنا، والعمل مع فنانات مهنيات امتياز لا بد أن يصل إليه البالغون والأطفال، ليكونوا قادرين على التعلم معاً بطرق وسبل تقدّر قدراتنا الإنسانية لكي نكون مبدعين، وفنانين أيضاً.

وقد سجّل البحث استكشاف موضوعات كبيرة كالهوية والانتماء، والمجتمع والعلاقات والنزاعات، والميلاد والموت. والاهتمام بالتفسيرات المختلفة والمعاني السلسة في بناء المعرفة، ولّد «إمكانية التفكير بحكمة»، تفكير إبداعي ومسؤولية جماعية.

رفاهية واحترام الذات

«عندما يستطيع المعلمون أن يجعلوا المنهاج ينبض بالحياة عن طريق جعل التعلم ذا مغزى وذا صلة بالأطفال، عندئذ نرى نتيجة متعلمين واثقين وطموحين». (الكتاب، ص210)

إن الطريقة التي يعمل بها **5×5×5= إبداع**، تدعم الرفاهية العاطفية واحترام الذات لدى الأطفال والبالغين، لأنها تعزّز الإبداع الفردي واحتمالات تعلم موجّه للفرد وتعكس أساليب تعلم، واهتمامات، وأفضليات، وحاجات المتعلم. كما أنها تتابع رحلات

تعلمهم الفردي لتعزيز التقدم وترسيخ الثقة، وتشجيع الميول الإيجابية للتعلم.

بيداغوجيا تأملية إبداعية

إن 5×5×5= إبداع يدعم تطور الأطفال عبر تجارب تعليمية تعزز الجوانب المعرفية والمؤثرة للتعلم. والهدف هو «تنمية مواطنين فعّالين لهم حقوقهم، في حين يتم عرض استحقاق لتعليم إبداعي. ويحتاج البالغون إلى الشجاعة لمنح الأطفال إذناً كي يكونوا مبدعين» (ص210)، وإعطاء مزيد من الانتباه إلى الأبعاد العاطفية والفكرية والجمالية للتعلم.

استنتاجات

«الطفل يتكّون من مئة

الطفل لديه مئة لغة، مئة يد، مئة فكرة، مئة طريقة للتفكير

للعب، للحديث مئة، دائماً مئة...».

لوريس ملاغوزي، ص215)

بينت التجارب في 5×5×5= إبداع أن الأطفال يحتاجون إلى قدر كبير من الحرية؛ حرية البحث والمحاولة، والوقوع في الأخطاء والعمل على تصحيحها، واختيار أين ومع من يستثمرون حب استطلاعهم وعواطفهم وذكاءهم.

أما على مستوى الكبار، فتقول لهم ملاغوزي: «احتذوا بجميع أنواع المشاركة الديمقراطية، والتعلم التعاوني، وحل النزاعات التي تحاولون تعليمها للأطفال. لا تتداولوا أشياء مثل خيار الأنشطة فقط» (ص12)، بل عليكم أن تتداولوا المعنى على نحو أكثر عمقاً.

إن هذا المشروع له رؤى كثيرة، يوضح عمق التعلم، وهو مصمم على تعميق التفكير، وتحدي الإدراك، وتحفيز التغيير، ويستكشف سبلاً مثيرة للاهتمام تتيح أن يشارك فيها مجتمع إبداعي في تعلم ذي مغزى مع أطفال صغار وعائلاتهم.

ولا شك أن الاستثمار في الموهبة الخلاقة للأفراد، يساهم في ثقافة تعليمية تستطيع أن تغير أوجه الحياة. والأمل هو أن الأطفال والصغار سوف يكونون في الغد مفكرين ومبدعين ومثقفين، ويفلحون في كل مظاهر حياتهم.

كاتب يقيم في رام الله

معلمات مسار الطفولة المبكرة المشاركات في نقاش الكتاب برام الله 2014.